حديث
(أي الذنب أعظم)

(عن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك) متفق عليه

ترجمة راوي الحديث

عبد الله صاحب هذا الحديث هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد جاء ذلك صريحا في رواية أخرى ذكرها البخاري وغيره.

وعبد الله بن مسعود أحد أعلام الصحابة وعلمائهم وينتهي نسبه إلى هزيل، أسلم قديما حين أسلم سعيد بن زيد، قبل أن يسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بزمان، وفى ذلك يقول ابن مسعود: (لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا (أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

هاجر ابن مسعود إلى الحبشة الهجرتين ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين وشهد سائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وغيرها، كما شهد موقعة اليرموك بعد وفاته، وهو الذي أجهز على أبي جهل في غزوة بدر، وقد شهد له رسول الله بالجنة، وكان كثير الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخدمة له كما كان

صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبسه إياها إذا قام، فإذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود في ذراعه. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له.)

كان ابن مسعود معدودا من كبار الصحابة وأعلامهم، وفضلائهم وفقهائهم والمقدمين في القرآن والحديث والفتوى، وذلك لتقدم إسلامه وشدة ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم وشغفه بالأخذ عنه وحسن مسألته حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له بالإمامة والتقدم في القرآن وأوصى بالأخذ عنه والاغتراف من منهله فقد أخرج البخاري بسنده عن مسروق رحمه الله قال) :ذكر عبد الله عند عبد الله بن عمرو فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود - فبدأ به - وسالم مولى أبى حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل، قال: لا أدري بدأ بأبيّ أو معاذ) .

وقد تحدث ابن مسعود بنعمة ربه عليه وبين مبلغ حفظه لكتاب الله ومعرفته به فقال (والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، ولو أعلم أحدا هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه).

وقد عرف كبار الصحابة لابن مسعود منزلته في العلم ورسوخ قدمه في الدين فهذا عمر بن الخطاب رضي الله يكتب إلى أهل الكوفة: (بعثت إليكم عمارا أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر، فاقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي) وقد روي عنه الحديث كثير من الصحابة وغيرهم.
فمن الصحابة أبو موسى الأشعري وعمران بن حصين وابن عباس وابن عمر وجابر وأنس وابن الزبير وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وأبو رافع وغيرهم. ومن التابعين علقمة، والأسود وأبو وائل ومسروق وعبيدة وقيس ابن أبى حازم وغيرهم.
وقد بلغت مرويات ابن مسعود نحوا من ثمانمائة وثمانية وأربعين حديثا اتفق الشيخان منها على أربعة وستين وانفرد البخاري بواحد وعشرين حديثا ومسلم بخمسة وثلاثين حديثا.
ويعتبر هذا العدد المروي عن ابن مسعود قليلا بالنسبة لما كان ينتظر منه رضي الله عنه لتقدم إسلامه وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدخله ومخرجه وسفره وحضره وشدة حرصه على الحديث وقوة حفظه وتفرغه لتحصيل العلم ولكنه لقي ربه فى سنة ٣٢ من الهجرة فلم تطل به الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتسع له زمن الأداء كما اتسع لأبي هريرة وغيره فرضي الله عنه وأرضاه.
وقد أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب التفسير عند قوله تعالى) :فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (من

سورة البقرة، وعند قوله تعالى) :وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ (من سورة الفرقان، كما أخرجه في كتاب التوحيد.

الشرح والبيان

قوله :(أي الذنب أعظم؟ (أي اسم استفهام يسأل بها للتمييز بين الشيئين أو الأشياء، ولهذا فإنها تضاف لمتعدد فإن أضيفت لمفرد كما هو الحال هنا فالمراد به متعددوالتقدير هنا: أي أنواع الذنب أعظم؟

(قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك) الند بكسر النون وتشديد الدال ويقال له النديد أيضا: هو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره

وجملة (وهو خلقك) حالية من فاعل تجعل، وفائدتها التنبيه على أن الله وحده هو الخليق بالعبادة لأنه هو الذي تفرد بالخلق والإيجاد ثم إليه الرزق والإمداد، قال تعالى) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١ (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة21-22]

وعلى أن الشرك لا يستقيم مع الفطرة السليمة والطباع المستقيمة.

ولذلك اشتهر القول بأن وجود الخلق دليل على وجود الخالق وأن استقامته دليل على وحدانه ومدرته وحكمته قال تعالى) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

[الأنبياء ٢٢ [وقال) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) [المؤمنون ٩١]

وهذا الحديث يتضمن تحذيرا شديد من الشرك بالله على أي حال وما من ذنب إلا وقد يغفره الله لصاحبه إلا الشرك بالله، قال سبحانه) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) [النساء ٤٨]

)قلت: إن ذلك لعظيم ثم أي؟(

عقب ابن مسعود رضي الله عنه على كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأجابته بان اتخاذ العبد أندادا لله وإشراكه به ذنب عظيم حقا، ثم سأل أي الذنوب أعظم بعد الشرك بالله؟

قال صلى الله عليه وسلم) وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك (الولد يطلق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى .

وقتل الولد جريمة من أعظم الجرائم وأبشعها، لأنه قتل لنفس بريئة وقطع لما أمر الله به أن يوصل ومخالفة للطبع والشرع ثم إن الإقدام عليها بدافع الخشية من الفقر سوء ظن بالله الذي تكفل بالرزق لسائر الخلق .

وقد نهى الله في كتابه عن قتل الأولاد لفقر واقع أو متوقع قال تعالى) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) [الأنعام ١٥١ [وقال) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) [الإسراء ٣١]

وكان قتل الأولاد خشيه الفقر أو خشية العار إذا كن

بنات فاشيا في أهل الجاهلية، فلما جاء الإسلام ردهم إلى الصواب وأصلح من حالهم، وأرشدهم إلى أن الرزاق هو الخلاق.

واستأصل هذه العادات المرذوله فيما استأصل من عادات الجاهلية وقبائحها، فقد أصلح الإسلام العقيدة وأصلح الأخلاق، وهذب الطباع وكانت توجيهاته فى جميع النواحي القلبية والنفسية والخلقية والاجتماعية ذات أثر بارز في صلاح القلوب والعقول والنفوس.

(قلت :ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك)

المراد بالحليلة الزوجة، وإنما اشتدت شناعة ذلك لأنه زنا وإبطال لما أوصى الله به من حفظ حقوق الجيران، وإفساد للمرأة على زوجها. قال صلى الله عليه وسلم (ما تقولون في السرقة) قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره) ثم قال: (ما تقولون في الزنا) قالوا: حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة قال: (لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره)

قال الإمام النووي: وقوله صلى الله عليه وسلم) :أن تزاني حليلة جارك (هي زوجته، سميت بذلك لكونها تحل له، وقيل: لكونها تحل معه ومعنى) تزاني) أي: تزني بها برضاها وذلك يتضمن الزنا وإفسادها على زوجها واستمالة قلبها إلى الزاني، وذلك أفحش، وهو مع امرأة الجار أشد قبحا وأعظم جرما؟ لأن الجار يتوقع منه الذبّ عنه وعن حريمه، ويأمن بوائقه

ويطمئن إليه، وقد أمر بإكرامه والإحسان إليه، فإذا قابل هذا بالزنا بامرأته، وإفسادها عليه مع تمكنه منها على وجه لا يتمكن غيره منه كان في غاية من القبح.
ورعاية حقوق الجار وحفظ حرماته من الفضائل التي أمرت بها الأديان وأوصى بها الحكماء والمصلحون، قال عليه الصلاة والسلام: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)
وضمن الزنا معنى المراودة فعداه بنفسه أي :تراودها على الزنا .
يقول شاعر جاهلي:
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مثواها
وفى الحديث ما في الشرك بالله من شر وأنه أعظم الذنوب، وفيه أن الكبائر تتفاوت في عظمها وبشاعتها بحسب ما يترتب عليها من مفاسد.
وفيه أن الكبيرة قد تتعاظم عقوبتها تبعا لما يحيط بها من أحوال.
وفيه ما كان عليه الصحابة من السؤال عن الشر وأسبابه لتوقيها فرضي الله عنهم وأرضاهم.
والله أعلم

أ.د .العجمي الدمنهوري

Aldomiah.com